﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾ [الإسراء: 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـشِّـركُ سببُ الـذَّمِّ الأبـديِّ والـخـذلانِ السَّرمديِّ

بعد أنْ بيّنتِ الآيةُ السّابقةُ تفاضُلَ النّاس في الدّنيا، وأنّ درجاتِ الآخرةِ أكبرُ ممّا في الدّنيا، فقد بيَّنَتْ هذه الآية أنّ خُلاصَةَ أسبابِ الفوزِ تَركُ الشِّركِ، فذلك هو مبدأُ الإقبالِ على العمل الصّالحِ، وهو أوّلُ خُطواتِ السَّعي لِمُريدِ الآخرة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَقْعُدَ﴾: جذرُ الكلمة هو (قعد)؛ قَعَدَ خلافُ قامَ، والقَعَد: القَومُ الّذين لا ديوانَ لهم[2]، ومِنَ المَجاز: قعدَ عنِ الأمر: تركَه، وقعدَ له: اهتمَّ به، وقعد بمعنى صار، وهذا هو المُرادُ في الآية[3].

2) ﴿مَّخۡذُولٗا﴾: جذرُ الكلمة هو (خذل)؛ خَذَل خِذلانًا، وهو تركُكَ نُصرَةَ أخيكَ، وخِذلانُ اللّهِ للعبد: ألّا يَعصِمَه مِنَ السّوءِ[4]، وهذا هو المعنى المُرادُ في الآية الكريمة؛ لأنّ مَن أشركَ باللّه استحقَّ الخِذلانَ منه[5]، والخِذلانُ تَركُ مَن يُظَنُّ به أن يَنصُرَ نُصرَتَهُ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَـن أشـركَ بالله عـاشَ مَذمومًا مَخذولًا

الخطابُ في الآية لكلِّ مَن يصلحُ له، فهو خطابٌ عامٌّ يَشعرُ كلُّ فردٍ أنّ هذا النّهيَّ موجَّهٌ إليه؛ لأنّ سلامةَ الاعتقاد مسألةٌ شخصيّةٌ مَسؤولٌ عنها كلُّ فردٍ بذاته.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 64.
(2) الخليل، العين: (قعد).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قعد).
(4) الخليل، العين: (خذل).
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 458.
(6) الرّاغب، المفردات: (خذل).

والقعودُ بمعنى المكثِ، أو بمعنى العجزِ، أو الصّيرورةِ؛ والمعنى: أنَّه يقعدُ حائرًا نادمًا على ما فَرَّطَ منه، والخذلانُ تركُ النّصرةِ عند الحاجةِ إليها؛ والمعنى: لا تجعلْ - أيّها المُخاطَبُ - مع اللّه تعالى إلهًا آخرَ في عبادتِك أو خضوعِك، فتقعدَ جامعًا على نفسك مُصيبتين: مصيبة الذّمِّ من اللّهِ تعالى ومِن أوليائِه؛ لأنّك تركتَ عبادةَ مَن له الخَلقُ والأمرُ، وعبدتَ ما لا يَملِكُ لنفسِه نفعًا ولا ضرًّا، ومصيبة الخذلانِ، فلا تجدُ مَن يعينُك أو ينصرُك في ساعةٍ، أنت أحوجُ ما تكونُ فيها إلى العونِ والنّصر[1]، فيكون معنى الآيةِ "أنّ مَن أشركَ باللّه كان مذمومًا مخذولًا"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّذييل:

محـورُ قبـول الإيمـان توحيدُ الله تعالى

الآيةُ تذييلٌ لما قبلَها، فالعبارةُ فذْلكةٌ لاختلاف أحوالِ المُسلمين والمُشركين[3]، فالآيةُ هنا تدلُّ على أنّ قضيّةَ الفوزِ بالآخرة تُختصَرُ في مسألةٍ واحدةٍ هي عبادةُ اللّه وحدَهُ وتركُ الشّركِ به سبحانَه، وهو مبدأُ الإقبالِ على اللّه بالنّيّة الصّالحةِ، والسّعي الصّادقِ إلى العمل الصّالحِ.

علّةُ الفصل:

نبذُ الشّركِ دليلُ قبولِ الأعمال

هذه الآيةُ نهيٌ، والّتي قبلَها أمرٌ، فالآيتان إنشائيّتان؛ وبينهما كمالُ الانقطاع، وهذا هو الدّاعي للفصل بين الجملتين، والخطاب في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ للرّسول، وأرادَ به جميعَ الخَلقِ، والذّمُّ هنا لاحقٌ منَ اللّه تعالى، ومن ذوي العقول في أن يجعلَ الإنسانَ حجرًا أو مخلوقًا، يخصُّهُ بالكرامة، ويَنسُبُ إليه الألوهيَّةَ، ويُشرِكُهُ مع اللّه الّذي خلقَه ورزقَه وأنعمَ عليه[4].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 314.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 320.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 64.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 458.

غرضُ النَّهي:

التَّعريضُ بمَن يُـشـركُ بالله تعالى

في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ نهيٌ؛ وهو طلبُ الكفِّ عنِ الفعل على وجه الاستعلاءِ والإلزام، وفائدتُه بيانُ عاقبةِ مَن يفعلُ هذا الفعلَ: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾، وقد خرجَ النّهيُ إلى التّعريض بأولئك الّذين يتّخذونَ غيرَ اللّه إلهًا، فالخطابُ للرّسول، وأُريدَ به النّاسُ جميعًا.

تعيينُ المُرادِ بالخطاب بالنَّهي:

تـنـزيـلُ جنس الإنسان مَنزِلةَ الفرد الواحد

الخطابُ في قوله: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ﴾ يحتملُ أن يكونَ للرّسول ﷺ، والمُرادُ: جميعُ الخَلقِ[1]. "ويحتملُ أيضًا أن يكونَ الخطابُ للإنسان كأنّه قيلَ: أيّها الإنسانُ لا تجعَلْ مع اللّه إلهًا آخرَ، وهذا الاحتمالُ أَولى؛ لأنّه تعالى عَطَفَ عليه قولَه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾، وهذا لا يَليقُ بالنّبيّ ﷺ؛ لأنّ أبَوَيهِ ما بلَغا الكِبَرَ عندَهُ، فَعَلِمنا أنّ المُخاطَبَ بهذا هو الإنسانُ عمومًا[2].

غرضُ تقديم قوله: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾:

التّـحـذيـرُ مـنَ الـشّـرك بالله ومآلاته

قولُه: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ مضافٌ ومضافٌ إليه، وإنّ ﴿مَعَ﴾ ظرفُ مكانٍ للمعيَّةِ، منصوبٌ مُتعلِّقٌ بالمفعول الثّاني لـ ﴿تَجۡعَلۡ﴾، وتقديمُ ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ للتّحذير من هذا الفعلِ، فضلًا عنِ الاهتمام بالمُتقدِّم، ومثالُه كذلك قولُه: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ [الأنعام: 14] وقولُه: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ [الأنعام: 40].

دلالةُ تقييد ﴿إِلَٰهًا﴾ بالصّفة:

تحقيقُ مُطلَقِ التّوحيد، ونبذُ مُطلَقِ الشّرك

في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قُيّدَ إلهًا بالصّفة، ولو قالَ: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾ لفُهِمَ المعنى، وهذا إطنابٌ، ودلالتُه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 29.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 320.

تحقيقُ مُطلَقِ التّوحيدِ، فلا يصحُّ أيُّ إلهٍ مع اللّه تعالى، فلا آخرَ معه مهما كانَت صفاتُه وأحوالُه.

معنى الفاء ودلالتُها:

الشّـرك علّـة الأحوال المشينة والأوضـاع الذّميمة

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ سببيّةٌ، فإنّ مَن يُشركُ باللّه فيجعلَ معه إلهًا آخرَ تكُنْ عاقبتُهُ مجموعَ حالين، هما: ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، فقولُهُ: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ انتصبَ؛ لأنّه وَقَعَ بعدَ الفاء جوابًا للنّهي، وانتصابُهُ بإضمارِ (أنْ)، فما بعدَ الفاءِ مُتعلِّقٌ بالجملة المُتقدِّمةِ بحرفِ الفاء الّتي هي حرفُ العطفِ، وإنّما سمّاهُ النّحويّونَ جَوابًا لكونِه مُشابِهًا للجَزاءِ في أنّ الثّاني مُسبَّبٌ عنِ الأوّلِ، وتقديرُ الآيةِ إنْ جعلتَ مع اللّه إلهًا آخرَ قعدتَ مَذمومًا مَخذولًا[1]؛ أي: لا يكُنْ منك جَعْلٌ فقعودٌ[2].

بلاغةُ استعارةِ القعودِ للتّلبُّسِ بالحال:

المذمومُ المخذولُ شأنُه القعودُ بأسوأ حالٍ

القعودُ المذكورُ في قوله: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾؛ بمعنى: المكث، فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ؛ أي: فيمكثُ المُشركُ في النّاس مذمومًا مَخذولًا؛ كما تقولُ - لِمَن سألَ عن حال شخصٍ -: هو قاعِدٌ في أسوأ حالٍ، ومعناهُ ماكِثٌ ومُقيمٌ، وسواءٌ كان قائمًا أم جالسًا[3]، إذ أُريدَ بهذه الاستعارةِ تَجريدُ معنى النّهي إلى أنّه نَهيٌ تعريضٍ بالمُشركين؛ لأنّهُم مُتلبِّسونَ بالذّمِّ والخِذلانِ، فإن لم يُقلِعوا عنِ الشّركِ داموا فيهما[4].

القعودُ كنايةٌ عنِ العجزِ والضّعفِ:

القعودُ صورةٌ للعَجزِ والاستكانةِ

لمّا كان القيامُ أحدَ الأمورِ الّتي بها يَتِمُّ الفَوزُ بالخيراتِ، وكانَ القعودُ والجُلوسُ علامةً على عدمِ تلك المَكِنَةِ والقُدرةِ، فجُعِلَ القيامُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 320.
(2) الخرّاط، المُجتبى: 2/ 610.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 30.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 64.

كنايةً عنِ القُدرةِ على تحصيل الخيراتِ، وكذلك فإنّ القعودَ في قوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ كنايةٌ عنِ العجزِ والضّعفِ[1]، وقيلَ: معنى ﴿فَتَقْعُدَ﴾ فَتَعجزَ، والعربُ تقولُ: ما أَقعَدَكَ عنِ المَكارمِ[2].

نكتةُ إضمار الفاعلِ:

تعميمُ الخطابِ للنّاس جميعًا

في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ أضمرَ الفاعلَ في كلا الفعلين، وفائدةُ ذلك أنّه خطابٌ للرّسول ﷺ – على قولٍ – وأُريدَ به النّاسُ جميعًا، أو لجنسِ الإنسانِ، فأفادَ هذا الإضمارُ تعميمًا، وإنّما جاء الخطابُ موجَّهًا للرّسول ﷺ، والمُرادُ الأمّةُ دفعًا للاستكبار عن قبول النّصحِ والإرشادِ والتّحذيرِ منَ المَخاطر.

توجيهُ تخصيص الذَّمّ والخِذلان بالذِّكر:

المَـذمـومُ هو المُتَّبِعُ شهواتِهِ وشُبهاتِهِ

الذّمُّ في قوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ منَ اللهِ تعالى، ومن ذوي العقولِ في أن يجعلَ الإنسانُ عودًا أو حَجَرًا أفضلَ من نفسِه، ويخُصُّهُ بالكرامةِ، ويَنسُبُ إليه الألوهيَّةَ، ويُشرِكُهُ مع اللهِ الّذي خلقَه ورزقَه وأنعمَ عليهِ[3]، فلمّا ثَبَتَ بالدّليل أنّه لا إلهَ ولا مُدبِّرَ ولا مُقدِّرَ إلّا اللهُ تعالى، فعلى هذا التّقديرِ تكونُ جميعُ النّعمِ حاصلةً منَ اللهِ تعالى، فَمَن أشركَ باللهِ فقد أضافَ بعضَ تلك النِّعَمِ إلى غيرِهِ تعالى، فحينئذٍ يستحِقُّ الذّمَّ؛ لأنّ الخالقَ تعالى استحقَّ الشُّكرَ بإعطاءِ تلك النّعمِ، فلمّا جَحَدَ كونَها منَ اللهِ، فقد قابَلَ إحسانَ اللهِ تعالى بالإساءةِ والجُحودِ والكُفرانِ فاستَوجبَ الذّمَّ[4].

المـخـذولُ الّـذي يعتقدُ النَّصرَ في غيرِ النَّاصر

الحالُ الثّانيةُ ﴿مَّخْذُولًا﴾ هي تتميمٌ للحال الكلّيِّ الّذي وَقَعَ فيها المُشركُ؛ ثمّ إنّ الحالَين بالنّتيجة تعكسان نفسيّةَ المُشركِ ودواخلَه الباطنةَ؛ فقد تشكّلَت وتكوّنَت بسبب ما وَقَعَ فيها مَنْ يُعظِّمُ غيرَ اللهِ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 320.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 30.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 30.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 320.

فهو قد اتّخذَ له إلهًا غيرَ اللّه يعبدُه ويستعينُ به، فلا يجدُ له مُجيبًا أو مُعينًا، ولا يَجدُ له ناصرًا في الأحوال كلِّها، وإنَّما قلْنا: إنّه يستحقُّ الخذلانَ، لأنّه لمّا أثبَتَ شريكًا للّه تعالى استحقَّ أن يُفَوِّضَ أمرَه إلى ذلك الشَّريكِ، فلمّا كانَ ذلك الشّريكُ مَعدومًا بَقيَ بلا ناصرٍ، ولا حافظٍ، ولا مُعينٍ، وذلك عينُ الخِذلانِ[1].

نكتةُ ترتيبِ الحالَين:

الـذّمُّ والخذلانُ حالان مُتحقِّقان بالتّوالي

ترتيبُ الحالين واردٌ بحسب الحصول؛ لأنّ مَن وَقَعَ في ذمِّ اللّهِ والعقلاءِ منَ النّاس، فلا شكَّ أنّه سيقعُ في الخذلان تبعًا لذلك، فالذّمُّ هو التّركُ، وخذلانُ العبدِ أن لا يعصمَه اللّهُ مِنَ السّوء.

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ في السّياق الواحد:

استكمالُ أحوال المُشركِ في الدّنيا والآخرة

جاء قولُه تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ مع قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء: 39] لاستكمال حالَي المُشركِ في الدُّنيا والآخرة؛ لأنّ الأولى في الدُّنيا والثّانية في العُقبى[2]؛ فرتَّبَ على الأوّل كونَه مذمومًا مخذولًا؛ وذلك إشارةٌ إلى حال المُشرك في الدّنيا، ورتَّبَ على الثّاني أنّه يُلقَى في جهنّمَ مَلومًا مَدحورًا، وهذا حالُه في الآخرة، وفي القعود هناك والإلقاء ههنا إشارةٌ إلى أنّ للإنسان في الدّنيا صورةَ اختيارٍ بخلاف الآخرة[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذّمُّ واللّومُ:

المـذمـومُ لقبح فعلِه، والمَلومُ لسوء تدبيرِه

الذّمُّ هو تقبيحُ الأفعالِ المُنكَرَةِ، واللّومُ عتابٌ على الأفعال الخاطئةِ، كأنْ يُقالَ للمَلومِ: لمَ فعلتَ مثلَ هذا الفعل؟! وما الّذي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 320.
(2) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 164.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 350.

حملَكَ عليه؟! وما استفدتَ من هذا العملِ إلّا إلحاقَ الضّررِ بنفسِك[1].

الجعلُ والاتّخاذُ:

الجَعلُ تَغييرٌ بإيجاد الأثرِ في الشَّيء، تَقولُ جعلَ الطّينَ خزفًا، وَجعلَ السّاكِنَ مُتحرِّكًا، وَتقولُ: عَمِلَ الطّينَ خزفًا، ولا تقولُ: عَمِلَ السّاكِنَ مُتحرِّكًا؛ لأنَّ الحَرَكَةَ ليسَت بأثرٍ يُؤثِّرُ بِهِ في الشَّيء، والجَعلُ أيضًا يكونُ بمعنى الإحداثِ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ [الملك: 23]، ويجوزُ أَن يُقالَ: إنّ ذَلِك يَقتَضي أنّه جعلَها على هذهِ الصّفةِ الَّتي هي عليها[2]؛ فالجعلُ إنْ نُسِبَ إلى أفعال اللّهِ تعالى فإنّما يدلُّ على السُّننِ الكونيّةِ الّتي وضعَها في مخلوقاته سبحانَه، والاتّخاذُ؛ أخذُ الشَّيءِ لأمرٍ يستمرُّ فيه، مِثلُ الدّارِ يتّخِذُها مَسكَنًا، والدّابّة يتّخِذُها قعدةً، ويكونُ الاتّخاذُ التّسميةَ والحُكمَ، ومنه قوله تعالى ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3]؛ أي: سمَّوها بذلك، وحَكَموا لها به[3].

الجَعلُ تأثيرٌ في الشّيء، والاتّخاذُ للشّيء المُستمرّ

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 350.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 136.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 29.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»